تحول الشرير إلى معلم لطيف صديق

د. سائدة عفونة

«تحول الشرير إلى معلم لطيف صديق» . . هذا ما ورد على لسان طفل من مدرسة مشاركة في المؤتمر.

في صباح يوم ماطر، استيقظت مبكرة كعادتي، وكنت قد تلقيت دعوةً للمشاركة في المؤتمر التربوي الثالث للقطان، ولكن صوت الرعد وانهمار المطر الغزير جعلاني أتردد قليلاً، طامعة بالدفء بين أطفالي، ولا أدري ما الدافع الذي جعلني أنهض بسرعة لأصل المؤتمر في الوقت المناسب، لأسمع الكلمات الجميلة التي افتتح بها والأوراق الغنية التي عرضت. ما ميز هذا المؤتمر عن غيره من مؤتمرات شاركت فيها هذا العام، أن المتحدثين جميعاً كانوا من المعلمين، وأن الأوراق التي قدمت كانت زبدة تجارب غنية من الميدان قام بها الأطفال في مدارسهم.

وكباحثة ومهتمة بمجال تطوير نوعية التعليم، حصلت في هذا المؤتمر على الإجابة الشافية لكثير من الأسئلة التي تجول في ذهني حول كيف يمكن تحويل المدرسة من سجن- كما وصفها الأطفال المشاركون في المؤتمر- إلى بيت دافئ محبب إلى قلوبهم؟ وكيف يمكن تحويل «الشرير» كما أطلق عليه الطفل أحمد إلى معلم وصديق؟ ما رأيته أن الصف قد تحول إلى مسرح ومختبر ومكتبة وساحة ومرسم ومتحف، ورأيت تجسيداً حياً لنظرية الذكاءات المتعددة، حيث أن التعلم أصبح ذا أبعاد عدة، فهنالك المتعلم من خلال الصورة، وهنالك المتعلم من خلال الصوت، والمتعلم من خلال الإيماءات والقصة . . . وليس فقط بالكلمة كما عهدنا دائماً. ورأيت العجب من المعلمين الذين ينعتون دائماً بأنهم ملقنون مملون كيف تحولوا إلى محاورين وميسرين وملهمين ومراقبين للعملية التعلمية. أما أطفالنا الأحباء، فأخيراً تركوا مقاعدهم فارغة وفتحوا أفواههم وعيونهم وقلوبهم لا آذانهم فحسب، وأصبحوا يعملون بأيديهم وحواسهم لإنتاج المعرفة بدلاً من أخذها جاهزة معلبة كما صنعت وقدمت لهم. لم يكن ذلك مجرد تحول المعلم إلى باحث، وإنما أصبح الطفل باحثاً ماهراً بإمكانات بسيطة ومواد من البيئة المحيطة، وهذا ما أثار اهتمامي وفضولي.

تعجبت وتساءلت، أتم استيراد هؤلاء المعلمين والأطفال من الخارج أم هؤلاء معلمون من ضمن نظامنا ومدارسنا؟! وتحدثت إلى بعضهم متسائلة: ألم تمنعكم الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من التفكير السليم البناء؟ كيف حدث ذلك؟ ما الذي أحدث الفرق؟ كيف أصبحتم مبدعين بين يوم وليلة؟ وكانت الإجابة بأننا قد تحررنا من القيود التي كانت تكبلنا وتقيد عقولنا وأن الفرصة قد أتيحت لنا.

لن أخوض في تفاصيل التجارب التي طرحت، ولكن أود أن أقول إن معلمنا بريء مما ينسب إليه من الاتهامات بأنه السبب في تدني مستوى التحصيل العلمي في فلسطين، وإن هذه العينة الصغيرة نسبياً من المعلمين المبدعين، ما هي إلا قليل من كثير بحاجة إلى استخراج

الطاقة الإبداعية الكامنة في داخلهم وإطلاقها .

تعجبت لماذا عقد المؤتمر يوم الجمعة، وقيل إن ذلك لإتاحة الفرصة لأكبر عدد من التربويين للحضور، فنظرت حولي ولم أجد إلا القليلين، ما زلت أتساءل عن السبب!

كيف يمكن التعلم من هذه المبادرات والإبداعات والتجارب والاستفادة من الأفكار الإبداعية في جميع مدارسنا، وأتوجه هنا بالتحية إلى مؤسسة عبد المحسن القطان التي جسدت أن الطفل هو محور العملية التعليمية التعلمية بالفعل لا بالقول .

اختتم بشكر عميق لهذه الفراشات وهؤلاء العصافير والشموع التي تنير دروبهم وهذه الحاضنة الرؤوم «مركز القطان للبحث والتطوير التربوي» لإتاحة الفرصة لي للتعلم من خلال ممارساتهم الإبداعية التي قدموها .

دكتوراه في التخطيط للتعليم في ظل الحروب والطوارئ- بريطانيا
جامعة القدس المفتوحة